بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 06 نوفمبر 2018

الرّغبة والنسق الإيثولوجي في فلسفة سبينوزا

بلال مراوي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

تلخيص:

يعود الاهتمام بمفهوم الرغبة، كموضوع للاشتغال الفلسفي، إلى العصر اليوناني القديم، نظرا لما تطرحه من إشكالات فلسفية عويصة، وما تتطلبه معالجتها، تحديدا، من تمثل واستحضار لمفاهيم أخرى مرتبطة بها، كالحاجة والإرادة والسعادة؛ لذلك فليس من الغريب أن يخصص كل فيلسوف جزءا من كتابته لدراستها وتفحصها والبحث في إشكالاتها.

ودراسة هذا المفهوم اختلفت باختلاف زوايا النظر التي يخصصها كل فيلسوف لها، فهذا أفلاطون **Platon** في محاورته **المأدبة**، يذمها ويجعل منها انفعالا نفسيا ونقصا ونزوعا أهوجا، لا يتوافق مع متطلبات مدينته الفاضلة التي تتأسس، ضرورة، على الحكمة والاعتدال. وهذا إيتين جلسون **Etienne Henry gilson**[1**] يعبر أيضا في كتابه «روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط» عن نظرة المسيحية للرغبة، والتي بدورها شكلت استمرارية لما استخلصه أفلاطون ومن نحى نحوه، لكن بمسحة لاهوتية ذات طابع مسيحي، جعلت منها شعورا مرحليا يدفعنا للإحساس بالملل، لأن غايته تحقيق اللذة، وهذه الأخيرة بدورها فانية غير دائمة.

إلا أن هذا الموضوع في العصر الحديث، سيأخذ منحى آخرا ذا طابع إبيستمولوجي أكثر منه أخلاقيا، فتغير العلوم في هذا العصر وتغير المناهج وغلبة النظرة العلمية على مقاربة المواضيع، أدت إلى تغير دراسة مفهوم الرغبة، وأبرز من سعى إلى ترسيخ هذه المقاربة هو الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا في كتابه: «**الإيثيقا**».

إن الدراسة العلمية لمفهوم الرغبة دفعت سبينوزا إلى إعادة بناء نسق أنطولوجي جذري جديد، حدد فيه موقع الإنسان بشكل دقيق في علاقته بالكون أو الطبيعة، وذلك ليستطيع، بحق، تحديد مفهوم الرغبة ودراسته بطريقة تتوخى الحياد والموضوعية.

وبالتالي تطلب منا تحديد مفهوم الرغبة لدى سبينوزا، في هذا البحث، الكشف عن نظريتين تتعايشان أو تتوازيان داخل كتاب الإيثيقا. أولى تؤصل لنسق أنطولوجي جذري أطلق عليه الفيلسوف الفرنسي جيل

1** إتين هنري جلسون، هو فيلسوف من التوماوية الجديدة، ولد في باريس في 13 يونيو عام 1884، وتوفي في 20 مايو 1978 عن أربعة وتسعين عاما. درس الفلسفة، تم عين بها أستاذ الفلسفة في العصر الوسيط. ألقى عدة محاضرات في جامعة «تورنتو» «TORONTO» بكندا، ثم في «الكوليج دي فراس كما أنه ألقى عدة محاضرات في جامعة «هارفارد» بالولايات المتحدة الأمريكية. وفي العام الجامعي 1932/1931 دعته جامعة «أباردين» «Aberdeen» في أسكتلندا إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات ضمن موضوع «اللاهوت الطبيعي» «Natural theology» وقد حددت الجامعة لفيلسوفينا موضوع «روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ». وكانت المحاضرات العشرون التي دعي لإلقائها، هي التي يتشكل منها كتاب بنفس العنوان.

دولوز اسم النسق الإيثولوجي، وهو نسق صاغه سبينوزا بمفاهيم تقليدية ولكنها ذات حمولة مجترحة بشكل مختلف عن دلالتها الكلاسيكية، حمولة تلغي مفهوم الأنطولوجيا بمعناه الميتافيزيقي الواسع. والثانية تؤصل لنظرية إيثيقية مناهضة للأخلاق - بمعناها اللاهوتي والفلسفي على حد سواء - غايتها تحرير الإنسان وإسعاده.

تقديم عام:

إن الذي يجعل من كتاب الإيثيقا[2]*، لغزا رمزيا، وصعبا في نظر العديد من القراء، أو بالأحرى صعوبة بعض المفاهيم التي جاءت بين دفتيه، هو قراءته بخلفية مفاهيمية تحمل بين طياتها دلالة كلاسيكية، أو بفصلها عن نسقه الأنطولوجي العام ومحاولة قراءتها بشكل منعزل، أو بشكل مبتور الأطراف[3]*؛ فالكتاب من جهة جاء كثورة على الميتافيزيقا القديم (خاصة الميتافيزيقا الأرسطية)، ومن جهة أخرى، جاء ليقدم نظرية إيثيقية جديدة تنبني أسسها، أيضا على نظرية جديدة في الوجود، نظرية تسعى إلى فهم الإنسان كما هو فهما صحيحا، لا فهمه كما ينبغي أن يكون. وبالتالي، فإن هذا المؤلف الفذ جاء في نظر سبينوزا نفسه، ليحطم الإطار المفاهيمي الكلاسيكي المشكل للخطاب الأنطولوجي. ويبني نظرية إيثولوجية تبحث في **"دراسة كيفيات الوجود وأشكال تحقق الموجودات»**[4].

إنها نظرية لا تفهم إلا باعتبارها الضد المطلق للأخلاق، كونها قطعت مع «أخلاق العامة وأخلاق الفلاسفة على حد سواء»[5]، واعتبرت أن كلا هذين النوعين من الأخلاق، سعيا إلى بناء إنسان فاضل ونموذجي، إما عن طريق بناء تصور يقوم على وصايا الوعد الوعيد أو عن طريق اتباع مبدأي الإلزام والواجب، دون أن يكلفوا أصحابها، أنفسهم، عناء البحث عن حقيقة طبيعة النفس الإنسانية، أو عن علاقة هذه النفس الإنسانية بالطبيعة التي تعيش وتتحرك داخلها.

إن منهج هؤلاء في نظر سبينوزا كان يهدف إلى «الحكم على النفس بالنظر إلى ما تنتجه من أعمال»[6]، وأفعال وليس الحكم عليها انطلاقا من فهم سلوك الإنسان وانفعالاته في علاقته بقوانين الطبيعة، أو فهمه في إطار نسق أنطولوجي كلي يسمى، عند سبينوزا، بوحدة الطبيعة. وقد كتب سبينوزا في هذا الإطار، مبينا ذلك، يقول: «**إن معظم الذين كتبوا عن الانفعالات وعن سلوك الإنسان في الحياة، يبدو كأنهم يعالجون أمورا خارجة عن الطبيعة، لا أمورا تسير وفق قوانين الطبيعة العامة، بل يبدو أنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما ولو كان دولة داخل دولة.**»[7]

2* إن كتاب الإيثيقا أضحى اليوم بلغته وإشكالاته ومفاهيمه وقضاياه وحواشيه وبراهينه، جزءا من الكتب العظيمة التي غيرت الفكر الإنساني المديد، وصار الاستغناء عن قراءته أمرا ينزع عن الباحث في مجال الدراسات الفلسفية أصالته ويجعل من فلسفته فلسفة بتراء، فسواء أفكرنا مع كتاب الإيثيقا أو ضده نظل في الأساس خاضعين لنظام إيثيقي.

3* إن مشكلة الميتافيزيقا تمثل في نظر معظم مؤرخي الفلسفة نقطة البداية ونقطة النهاية، التي من خلالها يمكن استيعاب بعض المفاهيم السبينوزية.

4- عادل حدجامي، فلسفة جيل دلوز عن الوجود والاختلاف، دار توبقال للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2012، ص 58

5- جلال الدين سعيد، الرغبة والأخلاق في فلسفة سبينوزا، دار الجنوب، الطبعة الأولى، 2016، ص 7

6- نفس المرجع ونفس الصفحة.

7- سبينوزا، علم الأخلاق، جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت الطبعة الأولى 2009، ص 145

يقف سبينوزا هنا ضد التصور التقليدي لوضع الإنسان في الطبيعة، ويؤكد أن الإنسان ليس هو الكل بقدر ما هو جزء من أجزاء هذا الكل؛ أي أنه ليس جوهرا كما اعتقد ديكارت ومن سبقه قائما بذاته متفوقا عن كل أعراض وقوانين الطبيعة، كما أن الإنسان في هذه الفلسفة لا يمكن تصنيفه في قمة الكائنات التي يتم غالبا ترتيبها من اللا-عضويات حتى الإله، فعالم سبينوزا لا يوجد فيه ملكوت إنساني متعالٍ عن الحيوانات وعن الطبيعة، وإنما هو جزء منها قائم بها وفيها، لا فرق بينه وبين باقي عناصرها إلا من ناحية القدرة أو القوة.

إن التعاطي مع كل النظريات السابقة في الأخلاق والوجود نقدا، دفع سبينوزا إلى تأسيس مذهبا في الطبيعة الإنسانية، تدور محاوره حول ثلاثة عناصر أساسية: الله، الإنسان، والانفعالات، إنها عناصر تخضع جميعا لنفس التمشي، فبعد تأمل سبينوزا مسألة الإله، الجوهر الواحد الأحد، ومسألة الصفات وعلاقتها بالأحوال اللا-متناهية، والأحوال المتناهية، عمد إلى البحث في الطبيعة الإنسانية بما هي جزء من الأحوال المتناهية، محللا بذلك انفعالاتها المتعددة، وجاعلا من الرغبة في الاستمرار غاية الوجود ومنتهاه بهدف تحرير الإنسان تخليصه.

إذن كيف فهم سبينوزا الطبيعة الإنسانية بالنظر إلى هذه العناصر الثلاثة: الله، الإنسان، والانفعالات؟

للإجابة عن هذا السؤال وفهم نظرية سبينوزا الإيثيقية، سنوجه نظرنا نحو مفهوم رئيس في مذهبه، تحوم حوله كل المفاهيم الأخرى، ألا وهو مفهوم **الرغبة**، «ولقد سبق أن أكد روبر ميزراحي على أهمية هذا المفهوم وعلى المنزلة الاستراتيجية التي يحتلها ضمن كتاب الإيثيقا، فقال: «إن مفهوم الرغبة، الذي يتبوأ الباب الثالث من جملة خمسة أبواب، إنما يوجد على مسافة واحدة من مفهوم الطبيعة الذي يصدر عنه ومن مفهوم الحرية إذ ينصهر فيه.»

إن الرغبة السبينوزية إذن، في نظر مزراحي تصدر عن الطبيعة أو عن الإله، لكنها تحتل نفس مكانته داخل كتاب الإيثيقا، إذ بدونها ما كان للكتاب أن يكتمل معناه بنظرية في الحرية، أو ما كان للنظام الطبيعي الذي رسمه سبينوزا أن يوجد بالبت والمطلق، فالرغبة، لأجل ذلك، ستكون في كتاب الإيثقا، مفهوما يشكل حلقة وصل بين الطبيعة وقوانينها، وبين الإنسان وحريته.

وعلى هذا الأساس، سنعيد بدقة أكبر طرح السؤال السابق بالطريقة التالية: كيف يمكن للرغبة أن تجعل الإنسان حرّا، وهي صادرة عن طبيعة كلية محكومة بقوانين حتمية؟

1- الرغبة والوجود

إن الدراسة الموضوعية لمفهوم الرغبة تتطلب ضرورة ربطها بباقي المفاهيم النسقية المهيكلة لكتاب الإيثيقا، وخاصة مفهوم الإله والصفات والأحوال، لأن الرغبة تشكل خاصية جوهرية تربط بين مفهومي الإله والصفات وبين مفهوم الأحوال، داخل نظام طبيعي محايث لذاته لا يوجد فيه أي تسام أو تعال للإله عن صفاته وأحواله.

إنه نظام كلي يقدم تصورا محايثا عن الوجود، تصور ينظر في الكيفيات والعلاقات التي بواسطتها تتحقق الموجودات داخل هذا النظام، الذي يشكل، حسب سبينوزا، أصل وعلة أولى تدفع كل شيء في هذا العالم إلى أن يوجد، كما أنه يشكل البساط أو المجال، إن صح التعبير، الذي توجد فيه هذه الأشياء، وهو أخيرا الغاية النهائية لكل فعل أو علاقة أو أثر يحدث داخله؛ أي أنه كل واحد يشكل علة ومجالا وغاية[8*]، بها وفيها ومن أجلها يحدث كل شيء، والأسماء المرادفة التي يعطيها سبينوزا لهذا النظام هي: الجوهر، الإله، الطبيعة.

وأول ما يميز هذا الجوهر، حسب سبينوزا، هو كونه «علة ذاته وعلة كل الموجودات، مادة كان أو فكرا، حركة أو سكونا»[9]؛ فهو «ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته [...] أي ما لا تحتاج معرفته إلى معرفة شيء أخر»[10] غيره، حيث يصير الجوهر تبعا لهذا التعريف، علة ذاته وعلة كل التحولات التي تحدث داخله، وليست علة متعالية خالقة ومنزهة كما يعتقد التصور اللاهوتي، وإنما هو تحقق الطبيعة أو الجوهر بشكل مطلق ولامتناهي في كل لحظة وحين، فهو تحقق لجوهر واحد يعبر عن ذاته بأشكال متعددة في هذا العالم؛ أي أنه بساط واحد أزلي وسرمدي، «يفعل في ذاته وبذاته [...] ولا يستكين، لأنه العلة المحققة لكل تحققاتها، في كل لحظة؛ ولهذا فهو قوة في فعل دائم puissance en acte [...] وفق قوانين أبدية.»[11]

ويعبر هذا الجوهر الخالد الأزلي الذي لا ينقطع عن الفعل بذاته والانفعال في ذاته والتأثير بذاته والتأثر في ذاته، عن ذاته في الصفات؛ بما هي الصورة التي يدركها الذهن في الجوهر ويحقق ماهيته؛ أي أن ماهية الجوهر تنعكس منقسمة في عدد لا متناه من الصفات لا يدرك منها الإنسان إلا صفتين اثنتين هما:

8* نقصد هما بالغاية تحول الأشياء وتشكلها داخل مجال ما يفتأ يتكون.

9- عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف، ص 59

10- سبينوزا، علم الأخلاق، جلال الدين سعيد، ص 31- 37

11- عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف، ص 60

الفكر والامتداد؛ لأنه مكون من فكر وامتداد، فالصفات على هذا الأساس هي ماهية الإله، أو قل إن شئت، قوة الإله التي يفعل وينفعل بها.

إنها ما يتوقف وجوده ضرورة على وجود ما يسمى في فلسفة سبينوزا بالأحوال أو الطبيعة المطبوعة؛ أي مجموع الموجودات الجزئية وقوانين الطبيعة؛ حيث لا يمكن للجوهر والصفات أو الطبيعة الطابعة أن توجد بدون أحوال أو الطبيعة المطبوعة، وهذا ما يضمن، حسب سبينوزا، عدم تعدد الجواهر من ناحية ويحافظ على محايثة الجوهر لذاته ولصفاته ولأحواله من ناحية ثانية، ويضمن، من ناحية ثالثة، إطلاقية الجوهر، التي تؤسس لا تناهيه؛ حيث لا شيء في طبيعته يحد من ذاته، وإنما الأشياء التي تتكون داخله تحد بعضها بعضا، في إطار تعالقي من أجل تكوين ذاته واستمرارها.

إنه الصور التي تتخذها عناصر الجسم أو الفكر في ترابطاتها وتعالقاتها؛ أي الصورة التي تتخذها ذات الجوهر أثناء تحققه في كل لحظة، عن طريق جهد يسري داخل الطبيعة، يسميه سبينوزا بالكوناتوس.

إن الإنسان يشكل داخل هذا النظام الكلي جزءا من الأحوال، التي تعبر عن ماهية الإله، سواء من جهة اعتباره شيئا ممتدا (الجسم) أو من جهة اعتباره شيئا مفكرا (الفكر)، فهو على غرار كل الأشياء الواقعية حالا متناهيا يترتب على الجوهر الأحد ويتصور به وحده لا غير، فالإنسان ليس جوهرا؛ إذ لا يوجد إلا جوهر واحد هو الله، وهو علة ماهية أفراد البشر وعلة وجودهم معا، باعتباره موجد للأشياء الجزئية بماهيتها ووجودها.

إنه مجرد حال يسعى للاستمرار في سبيل تحقق ماهية الإله، من خلال جهد لا ينفصل عن ماهيته الإنسان الحقيقية، بما هي قدرة الإله، وهذا الجهد أو هذه القدرة، عين ماهيته، الذي يحفظ بها كيانه، وهو جهد غير مقتصر على الإنسان وحده، وإنما يبذله الكون بأكمله في سبيل تحقيق الذات الإلهية.

إنه ما يسمى في هذا النسق المفاهيمي بالرغبة أو الكوناتوس بما هي عين ماهية الإنسان مدفوعة بموجب هذا الجهد الكامن في الإنسان؛ حيث كتب سبينوزا يقول، في الكتاب الثالث، المعنون ب: في أصل الانفعالات وطبيعتها: «**لا يعدو أن يكون الجهد الذي يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه غير ماهية ذلك الشيء الفعلية.**»[12]

12- سبينوزا، علم الأخلاق، جلال الدين سعيد، ص 156

2- ماهية الرغبة وتحديدها ككوناتوس

من الصعب إعطاء تعريف ماهوي للرغبة في فلسفة سبينوزا، كونها تتداخل مع جميع مساعي الطبيعة البشرية، التي نطلق عليها أحيانا: الشهوة والإرادة والاندفاع، فهي من جهة، تشكل أساس وجوهر وماهية الإنسان، وهي من جهة أخرى، تتضمن الجهد الذي تبذله الطبيعة الإنسانية للاستمرار في الزمان.

وهذا تحديدا ما دفع سبينوزا إلى تخصيص باب كامل من كتابه **الإيثيقا**، لتعريف مفهوم الرغبة وكل الانفعالات المرتبطة بها، بشكل مضبوط يتماشى مع تصوره الوجودي الذي صاغه في الباب الأول، منبها في بدايته إلى الصعوبة نفسها التي تحدثنا عنها، إلا أنه عرفها متجاوزا ذلك بأنها «**هي عين ماهية الإنسان من حيث تصورها مدفوعة، بموجب انفعال من انفعالاتها الذاتية، إلى فعل شيء ما**.»[13]

إنها القدرة الكامنة في الإنسان التي تدفعه من حيث هو حال متناهي إلى الاستمرار في الوجود، وإلى القيام بالأشياء الصالحة لحفظه، لكن بموجب وعيه بالعلة الخارجية التي تدفعه. وغض النظر عن هذه العلة الخارجية التي تدفع الإنسان إلى الدخول في علاقات متعددة من الفعل والانفعال، هو ما يجعله ينظر إلى نفسه على أنه جوهر، يثبت ذاته إثباتا مطلقا، في حين أن إدراك الإنسان أنه يقوم بذلك مدفوعا بفعل علة خارجية، حددها سبينوزا في الانفعال؛ أي الهيئة التي تكون عليها هذه الماهية وتدفعها إلى دخول في علاقات تأثير وتأثر من أجل الاستمرار، يجعلنا نفهمه؛ أي الإنسان، كمجرد حال من الأحوال وليس جوهرا.

ولتوضيح ذلك، نقدم مثال الجسم المتحرك الذي ينزع إلى الاستمرار في التحرك، ويمثل عين وماهية الحركة، لكن هذا الجسم المتحرك قد يعتقد في نفسه أنه جوهرا وعلة لحركته، إذا نظر إليه معزولا عن الطبيعة، في حين أن حقيقة حركته نابعة من علة خارج عنه، وهذه العلة بدورها نابعة من علة كبرى.

و«يطلق سبينوزا اسم الكوناتوس على هذا السعي إلى الإثبات المطلق الذي يكشف لدى الحال عن قوة وقدرة العلة الوحيدة التي تعلله.»[14] وتدفعه إلى إدامة نفسه لأكبر قدر من الزمان ممكن. إنه قوة الشيء أو نزوعه إلى الاستمرار في الحالة التي هو عليها.

13- نفسه، ص 211

14- فاطمة حداد- الشامخ، الفلسفة النسقية، ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، مراجعة صالح مصباح، مؤسسة مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث، ص 35

ومن أجل أن يماهي سبينوزا بين الكوناتوس؛ أي النزوع والجهد في الاستمرار في الوجود، وبين الرغبة، باعتبارها ماهية الإنسان، جعلهما مبدأ الحياة[15*] الذي يظل قائما في كل الأحوال التي توجد ضمن نظام الطبيعة الكلي، والذي يخضع لحتمية مزدوجة، حتمية العلة الإلهية وحتمية الأشياء الجزئية التي يعتبر الإله علتها الأولى، التي تفعل وتنفعل مع بعضها لتحقيق ماهيتها.

إن الإنسان بما هو حال لصفتي الفكر والامتداد اللتين تتجلى من خلالهما ماهية الإله، كباقي الأشياء الجزئية، "يأتي للوجود عندما تدفعه أجزاء خارجية من الله ونظام الطبيعة للدخول في علاقة معينة."[16] والماهية الحقيقية للإنسان هي الرغبة محددة ككوناتوس؛ أي كجهد كامن فيه يدفعه للاستمرار في الوجود، الذي يمنحه الإله لهذا الحال المتناهي من ذاته، فهو علة وجوده وعلة استمراره، وهكذا ينطوي الإنسان وكل الأحوال على ماهيته وماهية الإله الأزلية اللامتناهية وتحقيقه لذاته يؤدي إلى تحقيق ماهية الإله.

وعليه تصير الرغبة والكوناتوس هما شرطا وجود الإنسان وشرطا استمراره، تحديدا لماهية وتحقيقا لماهية الإله اللامتناهية، وتعبيرا عن قدرته التي بها يفعل ويوجد، فهو مجرد وسيلة تحقق ذاتها في إطار تحقيقها لغاية تفوقها. وسيلة بها تحقق الطبيعة والعالم الخارجي.

إنه قوة تجعل الإنسان يرغب في الوجود أولا، ويناقض كل ما يعارضه ثانيا، فأن يكون الإنسان في النسق السبينوزي معناه أن يفعل؛ أي في السعي من خلال الكوناتوس إلى إثبات ماهية وتفعيلها ضد كل ما يجعل وجوده يتناقص. «وهذا الجهد [...] هو رغبة لأنه إثبات لكائن فرد وليس مجرد فراغ للوجود.»[17] فالإنسان يسعى ويشقى في هذه الحياة، يقوم بأعمال ومشاريع، من أجل أن يثبت وجوده، رغم الظروف والعراقيل التي توقفه، فهو يسعى بكل جهد إلى تحقيق ما يراه خيرا له ولتحقيق سعادته؛ أي أنه يسعى من خلال أفعاله إلى أن يكون. فيعبر بأفعاله هذه عن القوة المؤلف لنظام الطبيعة الكلي، ويعيها في نفس الوقت.

فإذا كانت كل الكائنات التي توجد في هذه الطبيعة الكلية، تتألف فقط من أجسام؛ أي من مادة، فإن الإنسان كائن حي مالك للوعي بما هو حال من أحوال صفة الفكر؛ أي أنه حال يثبت وجوده ويعي عكس الأحوال الأخرى هذا الإثبات؛ حيث إن «الإنسان جسم ووعي في آن، جسم ووعي بالجسم»[18] وقد كتب سبينوزا، موضحا ذلك، يقول في القضية التاسعة من الباب الثالث: «**تسعى النفس، من حيث لديها أفكارا**

15* إن الكوناتوس يهم جميع الأشياء الفردية دون أن يقتصر على الإنسان وحده، في حين أن مفهوم الرغبة متعلق بالإنسان فقط.

16- نفسه، ص 39

17- نفسه، ص 40

18- نفسه، ص 41

واضحة ومتميزة، وأيضا من حيث لديها أفكارا مختلطة، إلى الاستمرار في وجودها لمدة غير محددة، وهي تعي سعيها ذاك.»[19]

ونلخص سابق القول، في أن الرغبة هي قدرة وطاقة وقوة ومعرفة لا تستكين. تعبر في الإنسان عن الجهد الكلي الذي يسكنه من حيث هو فكر وامتداد، وبعبارة أخرى، هي الجهد الذي يسري في الكون كحركة ديناميكية، تسكن الطبيعة وتجعلها تتحقق في كل لحظة وحين، وتحقيق هذا الجهد يدفع الإنسان إلى الدخول في علاقات تأثير وتأثر مع الأشياء الخارجية، وهو ما يسميه سبينوزا بالانفعال. فما علاقة الانفعال بالرغبة؟

3- الرغبة كجهد يتحقق بالانفعال

يعرف سبينوزا الانفعال بأنه هو الهيئة التي يأخذها الكوناتوس أو الرغبة أثناء تحققه في العالم الخارجي؛ أي أنه «حاصل العلاقة بين الرغبة والأشياء»[20]، فهو تلك الآثار التي تلحق بالجسم الإنساني أثناء تفاعله مع أجسام أخرى، وهو أيضا الأفكار والصور الذهنية التي تنتج عن هذا التفاعل في النفس[21*].

إنه التغير الذي يطرأ على الحال وآثار الأحوال الأخرى عليه، والتي تجعل الطبيعة في حركة دائمة تدفعها إلى التحقق في كل لحظة وحين، وبعبارة أخرى، الانفعالات هي التي تجعل الإنسان بما هو حال، يضمن استمرار وجوده أو يعيقه في إطار علائقي مع أشياء العالم الخارجي.

من النافع جدّا أن نقول، إذن، إن الانفعال الذي يصيب الجسم والنفس هو التحقق الواقعي لذلك التمشي أو الحركة التي تسري في الكون بصفة عامة وفي الإنسان بصفة خاصة؛ أي أنه الكوناتوس أو الرغبة وقد أخذ شكل علاقات تأثير وتأثر وشكل أفكار وصور ناتجة عن هذه العلاقات.

وتحقيق هذه العلاقات التي يدخل فيها الإنسان مع التحديدات الخارجية المشتركة للطبيعة، تدفعه ضرورة، كي ينتقل عبر لحظات زمانية، من وضع سابق إلى وضع لاحق، وفي هذا مستوى تجسد الانفعالات ذلك التوتر الذي يحصل للإنسان بين وضعيتين مختلفتين في الديمومة، ينتقل على ضوئهما من الكمال أقل

19- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 157

20- جلال الدين سعيد، **الرغبة والأخلاق في فلسفة سبينوزا**، ص 56

21* وتأمل هذا الانفعال بعد حدوثه يسمى تخيلا، مما يجعل إعادة استحضاره كفكرة تُحدث في النفس والجسم نفس الآثار وبنفس الشدة اللذان حدثا بهما أول مرة.

إلى كمال أكبر من الذي كان يعيشه في الوضع السابق أو العكس من كمال أكبر إلى كمال أقل، ويحصل ذلك بفعل تغيرات وتحولات زمانية تصيب النفس والجسم معا.

وهكذا، فالانفعال يحيل عن وضع أو حالة زمانية لجسم ينتقل على إثرها إلى حالة أخرى، ويحيل أيضا عن الفكرة أو الصورة الذهنية التي تتركها هذه الحالة في النفس، وبما أن الجسم والنفس، حسب سبينوزا، شيء واحد منظور إليه من جهة صفتي الفكر والامتداد، فإن دخول الجسم في علاقة مع أجسام أخرى يترك انفعالا في النفس، بنفس الشدة والقوة التي يحدث بها في الجسم، فنسمي الأول انفعالا والثاني إحساسا، ويجمل سبينوزا كل هذا في القول التالي: **"أعني بالانفعالات-الأحاسيس، تأثرات الجسم التي بها تزداد قوة فعله أو تنقص، تعاون أو تعاق، وكذلك أفكار هذه التأثرات.»**[22]

وهذه الانفعالات التي بها يستمر الكائن في الوجود أو يندثر ويساهم من خلالها أيضا في تحقق الطبيعة أو العالم الخارجي وتكونه، تتحقق بدرجة معينة من الجهد أو القدرة التي يمتلكها الكائن، وتمكنه من الدخول مع الأشياء الأخرى في تلاقيات مختلفة.

ولإقدام على هذه التلاقيات يؤدي إلى حصولنا على نتيجتين أساسيتين لا ثالثة لهما: إما أن يلاقي هذا الكائن حالا آخرا يتناسب معه، يكون حسنا بالنسبة إليه، ويؤدي إلى تزكية وجوده واستمراره. وإما أن يلاقي حالا لا يتناسب معه، يكون قبيحا بالنسبة إليه، ويؤدي إلى تضاؤل وتناقص قدرته على الوجود أو إلى تفكيك تعالقاته وإنهاء وجوده. «**فنقول تبعا للوضع الناتج: إن قدرته على الفعل أو قوته على الوجود، ازدادت أو قلت، تبعا لكون قوة الحال الآخر قد أضيفت إليه أو نقصت منه، أحيت قوته أو منعتها.**»[23]

وينتج عن ذلك أن الكائن الإنساني، في الحالة الأولى، يزكي وجوده ويمر من حالة كمال أقل إلى كمال أعظم، وفي الحالة الثانية تنقص قدرته على الوجود، فينتقل من كما أعظم إلى كمال أقل. والانفعال الذي يمر بواسطته هذا الكائن من كمال أقل إلى كمال أعظم، يسمى فرحا أو غبطة، أما الذي يضعف قدرته على الوجود وينتقل فيه من كمال أعظم إلى كمال أقل يسمى حزنا.

وحينما يعي الإنسان هذين الانفعالين؛ أي عندما يمتلك فكرة عن الفكرة التي تركها الانفعالان في النفس، يصير الفرح أو الغبطة حبّا ويصير الحزن كراهية، وعلى نفس الشاكلة وبنفس الطريقة تتولد سلسلة الانفعالات الأخرى من حسد وميل واستحسان وخشية ونفور وأمل وحسن وقبيح...إلخ.

22- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 147

23- جيل دولوز، **سبينوزا فلسفة عملية**، ترجمة: عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2015، ص 64

ويميز سبينوزا، على حد تعبير **دولوز**، بين نوعين من الانفعالات: انفعالات سالبة وانفعالات موجبة، حيث يحدد الأولى على أنها تلك الانفعالات والأحاسيس التي تنبع من التلاقي الخارجي للإنسان مع أشياء أخرى من العالم الخارجي ولا يمتلك عنها فكرة تامة؛ بمعنى أننا لسنا علتها التامة بل نحن علتها الجزئية فقط، ولكن هذا لا يعني، فيما يرى دولوز من خلال تأويله للنص السبينوزي، أن الانفعالات السالبة تؤدي إلى تناقص في قدرتنا على الوجود؛ بل يمكن أن تؤدي أيضا إلى تزايدها، وقد سمي هذا الانفعال بالسالب، فقط لأننا ليس لدينا فكرة واضحة ومتميزة عن علته التامة، وذلك لتدخل حال آخر في حدوثه.

في حين يرى سبينوزا أن الانفعال الموجب نكون علته التامة، ونمتلك عن هذه العلة فكرة واضحة؛ أي أننا نعرفها كما تحدث في ماهيتنا وفي ماهية الإله وينتج عن هذا انفعال دائم لا يتغير بتغير الأحوال. ومن هنا يصير الانفعال السالب هو قدرتنا على الانفعال من خلال التلاقي مع أحوال أخرى خارجية، والانفعال الموجب هو قدرتنا على الفعل لوحدنا دون استحضار الأحوال الأخرى.

وهكذا تصير الرغبة هي أصل كل الانفعالات ومنبعها الوحيد؛ أي أنها أصل انفعالي الفرح والحزن اللذان تتولد منهما باقي الانفعالات الأخرى. إنها القدرة والطاقة التي تدفع الإنسان إلى الدخول في تلاقيات خارجية مع نظام الطبيعة المشترك، وهي في الوقت ذاته امتلاك لفكرة عن الفكرة التي تتركها هذه التلاقيات في النفس، فهي كما قال سبينوزا، بدقيق العبارة، **سعي للوجود ووعي بهذا السعي**.

4- الرغبة والإرادة

لا يملك الإنسان في فلسفة سبينوزا إرادة حرة سابقة عن الرغبة بها يثبت أو ينفي أمرا ما يرغب فيه، أو عنه، وإنما تأتي متأخرة عن تلك التلاقيات التي يحدث على ضوئها الانفعال؛ بمعنى لا توجد في النفس بشكل قبلي، كما اعتقد الكثير من المفكرين، أرسطو وديكارت من بعده. وإنما تتحدد عن طريق الأفكار والصور التي يتركها الانفعال الناتج عن تلاقي جسم مع جسم آخر.

وبناء على ذلك، لا يمكن لقوى الجسم أن تحددها قوى النفس، إذ إنه ليس في النفس ملكة مطلقة للإرادة وعدم الإرادة، وإنما فيها إرادات جزئية اكتسبتها من الأجسام الخارجية التي دخلت معها في تعالقات مختلفة، وذلك واضح من خلال قول سبينوزا: «**ليس في النفس أية إرادة، أعني أي إثبات أو نفي، عدا ما تنطوي عليه الفكرة بما هي فكرة.**»[24]

24- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 136

وإذا كانت إرادتنا قائمة في النفس على شكل إرادات جزئية تتركها الأشياء فينا كأفكار، «فإننا لسنا نحن من يثبت أو ينفي أي شيء عن أي شيء، ولكن الأشياء هي التي تثبت وتنفي شيئا عن ذاتها فينا.»[25] وبالتالي، فالذي يجعلنا نعتقد أننا نمتلك إرادة مطلقة لها حرية الاختيار، حسب سبينوزا، بها نفعل ما نشاء، إنما هو اعتقادنا من جهة في استقلالية الإنسان عن علله الطبيعة؛ أي اعتباره دولة صغيرة داخل دولة كبير، والنظر إليه، من جهة ثانية، في غضون الطرفية الفزيائية التي يوجد فيها، دون التفكير في تلك الأسباب التي أدت به كي يوجد في تلك الظرفية وعلى تلك الشاكلة. ويؤكد سبينوزا ذلك قائلا: «**ليست في النفس إرادة مطلقة أو حرة، بل يتحتم على النفس أن تريد هذا أو ذاك بمقتضى سبب يحدده سبب آخر، وهذا السبب يحدده سبب آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.**»[26]

والخلاصة التي يمكن أن نستنتجها هنا هي: أن الإرادة تأتي متأخرة عن الرغبة، مادامت هذه الأخيرة هي المحدد الرئيس للإرادات الجزئية التي توجد في النفس؛ حيث إن الرغبة في البقاء والاستمرار في الوجود لا تعتبر إرادة إلا إذا تعلقت بالنفس دون سواها. ومنه «**فإننا لا نسعى إلى شيء ولا نريده ولا نشتهيه ولا نرغب فيه لكوننا نعتقده خيرا، بل نحن، على العكس من ذلك، نعتبره خيرا لكوننا نسعى إليه ونريده ونشتهيه ونرغب فيه.**»[27]

5- الرغبة والحرية.

إن جهد صاحب الإيثيقا تمحور منذ بداية الكتاب إلى نهايته حول حقيقة "فصل [ذلك] الربط التقليدي الذي كان يقام بين الحرية والإرادة"[28] وتبيان أن الحرية ليست مجرد قدرة أو قوة نفسية بموجبها تكون لنا إرادة ومشيئة الفعل والترك كما نشاء وبالطريقة التي نشاء بها، إذ إن الإرادة الحرة لا يمكن أن تكون كذلك؛ لأنها مجرد حال للفكر محكومة بسلسلة من العلل الخارجية.

ويعتبر مبدأ ضرورة العلل هذا، مبدأ يحكم الطبيعة بأسرها وكل ما يوجد فيها، فتكونها خاضع لنظام صارم من القوانين والأسباب التي لا مجال فيها للإمكان أو الحدوث، حيث يصير كل ما يوجد فيها يحدث كما يحدث، بالصورة والطريقة التي يحدث بها، وليس هناك إمكانات أخرى لحدوثه، لقول

25- جيل دولوز، **سبينوزا فلسفة عملية**، ترجمة: عادل حدجامي، ص 73

26- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 135

27- نفسه، ص 158

28- جيل دولوز، **سبينوزا فلسفة عملية**، ترجمة: عادل حدجامي، ص 102

سبينوزا: "**لم يكن بالإمكان أن تنتج الأشياء عن الله بطريقة أخرى وبنظام آخر، غير الطريقة والنظام اللذين نتجت بهما.**"[29]

فكيف يمكن للإنسان أن يكون حرّا في إطار كون تحكمه الضرورة الطبيعية؟

يجيبنا سبينوزا عن هذا السؤال في كتاب الإيثيقا بأكمله، ويرسخ إجابته في الكتاب الخامس بالتحديد، حيث يرى أن اعتقاد الإنسان في امتلاكه لحرية مطلقة، ناتج عن جهله بالأسباب الخارجية التي تدفعه للقيام بالفعل أو تركه، وسبب ذلك ظنه في أن النفس والجسم ينتجان أفعالا حرة هو علتها الوحيدة، وهو القادر على التحكم فيها وتوجيهها.

لكن الإنسان بما هو حال حسب سبينوزا يملك ماهية؛ أي درجة من القدرة والقوة تمكنه من أن يكون أفكارا تامة عن العلل المتحكمة في انفعالاته، فإنه يمكن أن يكون حرّا بموجب وعيه هذا وامتلاكه لهذه الأفكار التامة، وينتج عن ذلك منطقيا أن "الشخص لا يولد حرّا، وإنما يصير كذلك أي يتحرر. والكتاب الخامس من الإيثيقا يرسم صورة هذا الإنسان الحرّ والقوي."[30]

وهكذا فالإنسان يكون حرا عندما تكون رغبته أو الكوناتوس الذي يؤطر وجوده، محكوما بأفكار تامة تنشأ عنها ضرورة انفعالات إيجابية. وبالتالي، فالحرية مرتبطة بالرغبة بما هي ماهية الإنسان وليست مجرد قدرة داخلية على الفعل والترك مرتبط بالإرادة وبما يشتق منها.

6- الرغبة والسعادة

إن النفس بخضوعها لمجموعة من الأسباب والعلل، تنتج معلولات تبعا لسلسلة لا محدودة من العلل واستيعابها وإدراكها بشكل واسع، يجعل خضوعها للانفعالات المترتبة عن هذه الأسباب أقل حدة، ويكون تأثيرها بالأشياء ذاتها أقل.

ولعل أبرز مثال على ذلك؛ هو أن الانفعال الحزين المترتب عن فقداننا لخير من الخيرات، سيزول وينقضي، عندما نعرف وندرك أن فقدانه تم بفعل سلسلة من العلل؛ أي، بلغة أخرى، سيزول الحزن إذا ما اعتبرنا الخير الذي فقدنا ما كان بوسعنا الاحتفاظ به بأي وجه من الوجوه.

29- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 66

30- جيل دولوز، **سبينوزا فلسفة عملية**، ترجمة: عادل حدجامي، ص 104

بيد أن معرفة علل هذه الانفعالات جيدا وفهمها بشكل تام يخول لنا تنظيمها وفق نظام ذهني مناسب، من أجل التحكم فيها، وذلك بغية تحقيق السعادة والطمأنينة، لكن طالما أننا لم "نكتسب معرفة كاملة بانفعالاتنا، فأفضل ما يمكن أن نقوم به هو أن نتصور قاعدة للسلوك القويم في الحياة، أعني سلوكا يقوم على مبادئ ثابتة، وأن نحفظها في ذاكرتنا ونطبقها باستمرار على الأمور الجزئية التي تعترضنا كل يوم، حيث تكون مخيلتنا متأثرة جدا بهذه المبادئ التي تبقى دوما تحت تصرفنا."[31]

وهكذا، فإن تحقيق السعادة حسب سبينوزا رهين بمدى تحرير الإنسان من الأوهام الأخلاقية الفضة، ودفعه إلى فهم انفعالاته وضبطها وتنظيمها، وتعقل عللها وأسبابها، حيث يصير إنتاج المعرفة عن علل الانفعالات وأسبابها يمكننا من امتلاك قدرة على الفعل من أجل التحرر، بهدف تحقيق السعادة.

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها هنا هي أن الفلسفة السبينوزية تقدم لنا رؤية خاصة عن العالم تمكن الإنسان من فهمه لكي يتحرر من الأوهام التي كان يعتقد أنها سبب سعادته.

7- استنتاجات وخلاصات عامة:

يبدو واضحا أن طرح سبينوزا حول مفهوم الرغبة تنتج عنه خلاصات واستنتاجات غاية في الأهمية، يمكن أن نلخصها في الآتي:

أولا: تتطلب دراسة مفهوم الرغبة في فلسفة سبينوزا، ولضرورة منهجية فقط، دراسة باقي المفاهيم التي صاغها هذا الفيلسوف الهولندي الفذ عن الوجود (الجوهر، الصفات الأحوال)، وذلك لأنه، مفهوم أولى له صاحبه من الأهمية، ما جعله يشكل الجسر الذي بواسطته، تُحقق الطبيعة الطابعة نفسها في الطبيعة المطبوعة، من جهة ما هي تتحقق، عن طريق الإنسان.

ثانيا: يصير مفهوم الأنطولوجيا، في فلسفة سبينوزا، لاغيا ويعوض بمفهوم الإيثولوجيا، إذ إن الأول يُنظر إليه كدراسة تجريدية للوجود في إطلاقيته وقبليته، في حين أن الثاني يعرف على أنه فيزياء للوجود، تبحث في الموجودات، تجريبيا، من حيث تركيبتها وتحققها في العالم، كحركة وقوة وكميات طاقة. وإيثيقا سبينوزا، كما يؤكد دولوز في تأويله، لا يمكن أن تفهم إلا باعتبارها إيثولوجيا لا تستسلم للتجريد والتعالي وتغفل إجرائية التجربة.

31- سبينوزا، **علم الأخلاق**، جلال الدين سعيد، ص 325

وبما أن الأمر كذلك، فلا يجب النظر إلى الرغبة كموضوع أخلاقي مذموم، بل كموضوع للمعرفة والتقصي والبحث والفهم؛ أي كموضوع إبستمولوجي، ولعل السبب الرئيس الذي جعل معظم الفلاسفة ينظرون إلى الرغبة في إطارها ذاك، هو بناؤهم لأنساق أنطولوجية، تسعى إلى فهم الإنسان في أفق أخلاقاوية متعالية وعقيمة، تتبنى الكمال والنموذج والمثالية، كقاعد متينة تقف عليها.

ثالثا: تصبح الإيثيقا نظرية مناهضة للأخلاق، ولا تفهم إلا باعتبارها بديلا للتصور الأخلاقي عن العالم، وذلك لأن هذا الأخير يجعل الموجودات متراتبة في الوجود، حسب قيمتها الأخلاقية التي تسند إليها ماهيتها، في حين أن التصور الإيثيقي يجعل الموجودات متساوية من حيث القيمة، ولا وجود فيها للذي يسمو على الآخر، فكلها تخضع لنفس التمشي؛ أي لنظام من البساط والمحايثة، والفرق بينها لا يعدو أن يكون إلا فرقا، في القوة. فرق فيزيائي وليس أخلاقي.

إن النظام الأخلاقي، إذن، هو نظام أحكام متراتبة، يهدف إلى بناء نموذج فاضل يحتذ به، وهو نظام ينتج عن عدم فهمنا للموجودات في تحركاتها وتمشيها داخل الطبيعة، إنه نظام يقوم على "**لا**" التحريم، النهي والتوبيخ، في حين أن النظام الإيثيقي هو قلب لنظام أحكام الجزر والتوبيخ والنهي والطاعة والمأساة، وترسيخ لفلسفة حياة، تنبذ كل النزعات الحزينة وتدعو إلى تبني مقاربة إيثيقية، غايتها تحرير الإنسان وإسعاده، إنها مبحث فلسفي ينظر إلى العالم بشكل متساوي وإلى الموجودات من جهة قدرتها ومقاديرها على التحقق في الوجود.

رابعا: ينتج عن ذلك أن كل المواضيع الأخلاقية المطلقة من خير وشر، حسن وقبيح، ينعدم وجودها في النظام الإيثيقي، ويصير نسبيا؛ أي يصير حكمنا على الأشياء، راجع إلى مدى قدرة هذه الأشياء على تزكية وجودنا أو عدم قدرتها.

ببليوغرافية المراجع والمصادر

- عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف، دار توبقال للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2012
- جلال الدين سعيد، الرغبة والأخلاق في فلسفة سبينوزا، دار الجنوب، الطبعة الأولى، 2016
- سبينوزا، علم الأخلاق، جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009
- فاطمة حداد- الشامخ، الفلسفة النسقية، ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، مراجعة صالح مصباح، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- جيل دولوز، سبينوزا فلسفة عملية، ترجمة: عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2015
- ROBERT MSRAHI, 100 Mots sur L'Ethique de Spinoza, les empêcheurs de penser en rond / le seuil, 2005

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018